



معهد الدراسات الإسماعيلية

الحياة الفكرية في العهد الفاطمي

دليل قراءة

الفاطميون وتراثهم التعليمي

الكاتب هاينز هالم. إ. ب تورس، لندن و نيويورك، بالتعاون مع معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن 1997.
xiii + 100 pp. ISBN 1-86064-434-1

ينظر هاينز هالم إلى الخلافة الفاطمية من زاوية تسمح للقراء أن يطلعوا بشكل كبير أكثر من أي وقت مضى على التقاليد الفكرية التي كانت منتشرة والتي تم تشجيعها خلال العهد الفاطمي في أقل من مئة صفحة. كما ويعرض نظرة شاملة عن نشاطات الدعوة وتشجيع التعليم من خلال إنشاء الأزهر ودار العلم، ومجالس الحكمة التي كانت تُعقد من أجل تعاليم العقيدة الإسماعيلية. يناقش هالم المحاولات الفكرية للفاطميين من منظور الظروف الاجتماعية والسياسية في ذلك الوقت وكذلك في ضوء التأكيد الشيعي على المعرفة العائد لفترة الأئمة المبكرين.

يُنصَح بهذا الكتاب بشكل كبير للمهتمين بالتاريخ وخاصة تاريخ الإسماعيليين. سيقى هذا الكتاب استحسان الأساتذة والمعلمين وخاصة المهتمين بالتعليم الديني وتاريخ التعليم لما يشمله من تأكيد على العلم والتعليم. يمكن لهذا الكتاب أن يقدم قراءة تعليمية لأي شخص مهتم بالفكر والتاريخ الإسماعيلي بلغته البسيطة وأسلوب كتابته الواضح.

بنية الكتاب

في الافتتاحية، الرسالة الإسماعيلية والخلافة الفاطمية، يقدم هالم ملخصاً موجزاً عن الخلافة الفاطمية لكي يزود القارئ بخلفية عن التاريخ الفاطمي. يبدأ بملخص عن الوضع في سورية في القرن التاسع (حيث كان يقيم الإمام المهدي) قبل إنشاء الدولة الفاطمية في عام 909 ميلادي. بعد ذلك يوجه انتباهه إلى الإمام الخليفة المهدي (المتوفي عام 934 ميلادي) ويورد لمحة عن الظروف التي أحاطت بإنشاء الدولة الفاطمية. يقدم الفصل مراجعة عن عهد الأئمة الثلاثة اللاحقين منتهياً بمعلومات عن إخضاع مصر بشكل سلمي تحت سلطة الإمام الخليفة الرابع المعز (المتوفي عام 975 ميلادي).

يوضح الفصل الثاني 'مهمة الدعوة وجلسات التعليم' نشاطات الدعوة في التعليم والتعلم أيام الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا. ومن المثير للإنتباه مناقشة الكاتب لأسلوب الدعوة لإدخال الناس في الدين وكسبهم على اختلاف مذاهبهم. ولقد اهتم الكاتب بشكل رئيسي بداعيين إثنين من تلك الفترة هما أبو عبد الله الشيعي (المتوفي عام 911 ميلادي) والقاضي النعمان (المتوفي عام 974 ميلادي).

يعرض الفصل الثالث، 'الفاطميون في مصر'، من منظور تاريخي السيطرة على مصر من قبل القائد الفاطمي جوهر.

على الرغم من التركيز في معظم الفصل على عهد الإمام الحاكم (المتوفي حوالي العام 1021 ميلادي) وإنجازاته إلا أن حكم الأئمة المعز والعزیز (المتوفي عام 996 ميلادي) قد نوقش بشكل وافٍ. يحاول الكاتب في نقاشه عهد الحاكم أن يزيل وجهات النظر السلبية عن الإمام والتي اعتمدها بعض المؤرخين.

يمكن اعتبار الفصل الرابع، 'التعلم والتعليم الإسماعيلي: الظاهر والباطن'، على أنه جوهر الكتاب. يوضح الكاتب هنا أساس فهم الإسماعيليين الفاطميين للمعرفة وإدراك المعاني الظاهرة والباطنة. يفحص الكاتب الطبيعة المعاصرة لهذه المفهومين في العهد الفاطمي من خلال تحليل دور القاضي النعمان. يوضح هالم أيضاً المذاهب

الكونية والنشاطات الأدبية و دور الدعاة كالداعي حميد الدين الكرمانى (حوالى عام 1020 ميلادى)، و المؤيد فى الدين الشيرازى (1078 ميلادى) وناصر خسرو(حوالى عام 1088 ميلادى).

يحتوى الفصل الخامس 'تنظيم الدعوة' على دراسة عن التسلسل الهرمى المعقد لنظام الدعوة داخل وخارج الدولة الفاطمية. من المهم أن نشير هنا بأنه كان للخلافة الفاطمية امتداداً جغرافياً مبعثراً. وبالتالي فقد عمل تنظيم الدعوة وتعاليمها على المحافظة على توافق العقيدة فى المناطق المختلفة مع التأكيد على الولاء للأئمة.

يركز الفصل السادس 'بيت العلم للخليفة الإمام الحاكم' على أصول وتطور مؤسسة تُدعى دار العلم خلال عهد الإمام الحاكم. يرى المؤلف فى هذه المؤسسة شيئاً فريداً من نوعه فى التاريخ الإسلامى الفكرى لأنه وحد التعليم والتعلم لعدد كبير من التخصصات تجاوز حدود التعلم الدينية وغير الدينية.

يناقش الفصل الأخير 'المؤسسات العلمية فى الدولة الفاطمية' الجهود العلمية فى الدولة الفاطمية بالمقارنة مع الإنحدر السياسى للخلافة الفاطمية. يمكن الإستدلال على "العراقة العميقة للتقاليد الفاطمية فى التعلم" من خلال الجهود التى بذلت للمحافظة على دار العلم وبناء مرصد والتى استمرت حتى فى الفترات التى عانت فيها الدولة الفاطمية من عدم استقرار سياسى أو عسكرى. يُبرز هذا الفصل أيضاً المجال الواسع للإهتمام الفكرى للأئمة الفاطميين بالنظر للمجموعة الضخمة من الكتب فى مكتبات القصر.

الخلافة الفاطمية

وُصفت النشاطات الفكرية للإسماعيليين خلال العهد الفاطمى من قبل أحد الكتاب بأنها مماثلة لتلك التى حدثت فى أوروبا فى القرن الثامن عشر¹. وهذا بلاشك أثار السؤال عن الشيء الذى قاد إلى ازدهار الحياة الفكرية عند الفاطميين؟

يمكن أن يُفهم تاريخ الإسماعيليين على أنه تجسيد لإستجابة للرسالة الواردة فى الوحي الإسلامى². تعود تقاليد الجماعة الإسماعيلية فى المعتقدات والطقوس إلى فترة حياة النبى محمد بينما استخدم اسم اسماعيلى فى القرون التالية لوصف أتباع الإمام جعفر الصادق "والذى بقوا مخلصين لسلالته من خلال ابنه الكبير ووريثه المَعِين، الإمام اسماعيل"³.

طور الأئمة الأربع بعد الإمام اسماعيل شبكة معقدة من الوكلاء والمبعوثين، والتى عُرفت لاحقاً بالدعوة. هذا و عادت تلك الحركة الطريق لتأسيس الخلافة الفاطمية فى الجزء الأول من القرن التاسع فى شمال أفريقيا خلال عهد الإمام المهدي.

بقيت الخلافة الفاطمية فى شمال أفريقيا خلال عهد الأئمة الأربعة الأوائل: المهدي، القائم، المنصور، المعز - لمدة 64 سنة من عام 909 ميلادى حتى عام 973 ميلادى. خلال فترة حكمهم أسس الفاطميون جيشاً وأسطولاً قويين وحافظوا عليهما. كما أسس الإمامان المهدي والمنصور مدينتا المهديّة على الساحل التونسى والمنصورية جنوب القيروان والتى سميت بتلك الأسماء نسبة لهم⁵.

.....ذهب المهدي شخصياً إلى تونس، زار قرطاج وأماكن أخرى و ذهب على امتداد الساحل، باحثاً على طول البحر عن موقع لمدينة يمكن أن تجعله وأولاده من بعده محصنين. ... بحث لوقت طويل ووجد بأنه لا مكان أفضل من المهديّة [الاسم الذى تعرف به الآن]. بعد ذلك بنى المدينة هناك وجعلها عاصمته⁶.

كانت مدينة المهديّة مدينة القصور حيث أقامت بها العائلات الملكية وضمت القيادة والقاعدة البحرية⁷. لاتزال المدينة تحتفظ بآثار تدل على عظمة الفاطميين ومن هذه الآثار جامع الإمام المهدي الذى بناه لنفسه والذى رُم فى ستينيات القرن الماضى. خلال عهد الإمام المنصور، انتقلت العاصمة الرئيسية للفاطميين من المهديّة إلى المنصورية، التى أصبحت لاحقاً نموذجاً لمدينة القاهرة⁸.

فى عام 969 ميلادى استطاع الإمام المعز، والذى يصفه الكاتب بأنه "مصمم ومخطط ممتاز ومؤسس كفؤ ورجل دولة موهوب جداً بدبلوماسيته"⁹، بمساعدة جنراله جوهراستطاع السيطرة على مصر بشكل سلمى. أصبح جوهرا حاكم مصر من عام 969 ميلادى حتى عام 973 ميلادى¹⁰. بدأ بناء المدينة الجديدة 'القاهرة' خلال هذه

الفترة وفي عام 970 ميلادي وضعت أساسات الجامع الأزهر. وخلال الفترة الزمنية ذاتها أصبحت كلا المدينتين المقدستين مكة والمدينة تحت سيطرة الدولة الفاطمية. وصل الإمام بنفسه إلى القاهرة عام 973 ميلادي.

لقد دخل القاهرة مع الإمام المعز كل الوفود التي استقبلته وكذلك أولاده وإخوته وأعمامه وكل أقاربه كما كان قد أحضر معه أكفان أسلافه المهدي والقائم والمنصور¹¹....

يساعد وصف ستانلي لين- بول للإمام المعز في فهم أسباب نجاح حكمه:

..... ولد الإمام المعز كرجل دولة قادر على إدراك ظروف النجاح والإستفادة من كل نقطة لصالحه. كان كذلك متعلماً تعليماً عالياً، ولم يكن فقط يكتب الشعر العربي ويستمتع بأدبه، بل درس اليونانية وأتقن البربرية واللهجات المحلية السودانية، كما وقد ذكر بأنه علم نفسه اللغة السالفونية ... كانت بلاغته تدفع المستمعين للبكاء. كرمه وعطائه زاد من سلطته كرجل دولة كما وأن حبه للعدالة كان من بين صفاته النبيلة¹².

على الرغم من ازدهار التجارة والزراعة بالإضافة للإستقرار السياسي في مصر والمناطق الخاضعة للحكم الفاطمي إلا أن "الإنجازات الفاطمية الأكثر روعة وتفوقاً كانت في مجال الحياة الفكرية"¹³.

التقاليد الفكرية في مصر الفاطمية

أعطى الفاطميون أهمية كبيرة للمعرفة والتأويل الشيعي للإسلام وخاصة الطريقة الإسماعيلية وكان دعم الفاطميين للتعليم انعكاساً لهذا الإهتمام. فالإمام في اللاهوت الشيعي هو من يمتلك العلم الخاص بتأويل الوحي الإسلامي لمريديه. شكلت هذه العلاقة الوثيقة بين مرتبة الإمام والمعرفة، الدافع الروحي لتشجيع الحياة الفكرية. لقد وصل الفاطميون إلى السلطة في مرحلة حفلت بحركة للمذاهب الفكرية المعقدة. كانت العلاقة الوثيقة بين الدولة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية دافعاً إضافياً للتعليم والتعلم. كذلك كان الفاطميون ينافسون العباسيين على قيادة المسلمين في العالم وعملوا أيضاً على رعاية أفضل للمفكرين في العالم الإسلامي منافسين في ذلك العباسيين وكذلك الحكام الأمويين في إسبانيا وهذا ما أعطى سبباً آخر لرعاية الفكر.

أصبح الجامع الأزهر المركز التعليمي الرئيسي في القاهرة الفاطمية. يشكك الكاتب بوجهة النظر المعتمدة بشكل عام بأنه كان مركز تعليم للدعوة الإسماعيلية. بدلاً من ذلك يجادل المؤلف بأن الأزهر كان المكان الذي درست فيه المعاني الظاهرية للشريعة وفقاً للتفسير الإسماعيلي¹⁴. كانت الجلسات التعليمية متاحة للجميع، حتى النساء. كان المعنى الباطني للشريعة يُعلم في مجالس الحكمة التي كانت تعقد في قصر الإمام. كانت هذه الجلسات متاحة فقط "لمن دخل الإسماعيلية من جديد وبعد أن قطع عهداً مسبقاً بالولاء للإمام"¹⁵. كل المحاضرات في 'مجالس الحكمة' كانت تراجع ويوافق عليها الإمام قبل تقديمها. لم تكن المجالس لأغراض تعليمية فقط، بل كانت أيضاً فرصة لدفع المستحقات الخيرية¹⁶.

أسس الإمام الحاكم دار العلم عام 1005 ميلادي. كان اتساع المواضيع المدروسة وتنوعها ميزة فريدة من نوعها مما جعل دار العلم يبرز بين المعاهد التعليمية الأخرى في وقتها. كانت إمكانات دار العلم متاحة لكل الناس. "... كانت تعطى المحاضرات هناك من قبل قراء القرآن والفلكيين وعلماء اللغة والنحو والصرف وكذلك الأطباء".

كانت هناك نشاطات علمية هائلة أيضاً أثناء حكم الفاطميين ويُستدل على ذلك من خلال حياة ابن الهيثم. ولد ابن الهيثم في البصرة (تقع حالياً في العراق) في عام 965 ميلادي. وكان متعدد الجوانب الثقافية وخبيراً في كل المجالات العلمية في عصره. دُعي إلى القاهرة من قبل الإمام الحاكم ليقود عملية بناء سدٍ على النيل. لم يتحقق هذا المشروع في حينه لكن ابن الهيثم اتجه لتأليف بعض الأعمال في الفيزياء والفلسفة والفلك والرياضيات والطب بالإضافة إلى كتاب المناظير (بحث عن البصريات). في كتاب المناظير فند ابن الهيثم نظرية أقليدس وبطليموس بأن العين ترسل أشعة بصرية إلى هدف الرؤية مجادلاً بأن شكل الجسم المنظور يمر عبر العين عن طريق جسم شفاف (العدسات). أثبتت صحة هذه النظرية عدة قرون لاحقاً بين العلماء الأوروبيين.

تنظيم الدعوة

بالإشتراك مع المجموعات الشيعية الأخرى، يُدرك الإسماعيليون بأن المعرفة الروحية والحكمة كشفت للبشرية عن طريق الأنبياء، الذين نقلوا الوجه الظاهر للشريعة. بعد ذلك نُقلت المعرفة من خلال الإمام، الذي كان دائماً

موجوداً ليعطي المعنى الباطن للشريعة¹⁸. "وبناءً على علمه السامي اعتُبر الإمام من نسل علي عند الشيعة بأنه الوسيلة الوحيدة لإحكام الإرادة الإلهية في الأرض"¹⁹.

كما وتوضح أبحاث العلماء الإسماعيليين أن مبدأ تلقي المعرفة من الإمام لم يكن ليمنع المؤمن من استخدام المنطق وتحكيم العقل. وهكذا فإن قبول السلطة لم يكن ببساطة خضوعاً أعمى وإنما نتيجة للتفكير والتعقل البشري الذي يفرض لإدراك محدودية قدرة الإنسان على استكشاف الأسرار الروحية بذلك يسعى المؤمن لإدراكهم بوساطة الإمام. توضح جدلية العقل والسلطة الروحية التاريخ الفكري عند الإسماعيليين. استخدم الإمام شبكة من الدعاة، برئاسة الداعي الرئيس، "لدعوة الناس لإتباع الإمام الحقيقي وتلقي الأشخاص الذين استجابوا للدعوة... الحكمة"²⁰. يعرض الداعي أحمد النيسابوري موجزاً عن المواهب والخصائص والصفات التي يملكها الداعي المثالي:

... له الصفات الجيدة لمحامي خبير.. كما ويتمتع بالصبر والذكاء والنظرة النفسية المتعمقة، موضع ثقة ويمتاز بالشرف والأخلاق العالية، له مقدرة على القيادة بنجاح... له إرادة قوية كما ويقدر على التسامح. ... مستعد للتضحية بحياته وبكل شيء من أجل الدين²¹.

لا يكفي أن يكون الداعي متمكناً بشكل جيد "من القرآن وتفسيره وتقاليده النبي وقصص الأنبياء والتأويل الإسماعيلي لهذه الكتابات" فقط، بل عليه أن يملك المعرفة وبشكل متساوٍ في "المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافية"²²

امتلك الداعي طرقاً خاصة لنشره الدين. وفقاً لكتاب العالم والغلام²³ فإن هذه الطرق تتضمن إيجاد شخص مناسب للدخول في الدين ثم أخذ عهد السرية ومن ثم تلقيه الحكمة خطوة خطوة. تخبرنا المصادر بأن الدعاة اختاروا أمثلتهم واستعاراتهم الدلالية والنقاط الجدلية وفقاً لمستمعهم. وهكذا قيل عن الداعي بأنه: تحدث إلى الحرفيين بما يناسب حرفتهم الخاصة، فإلى الخياط على سبيل المثال تحدث عن الإبرة والخيط وثقب الإبرة والمقصات، وإلى الراعي عن عصاه وغطائه والقطيع وحقيبة الراعي²⁴. وهكذا اتبع الدعاة أسلوب التعليم الذي نطق به القرآن حيث يُسأل النبي أن يتكلم لكل شخص وفقاً لمقدراته وإمكاناته.

الخاتمة

يجب أن يُنظر إلى تقاليد التعليم والتعلم في زمن الفاطميين كجزء كامل من التقاليد الفكرية الإسلامية. فمن ناحية اشتركوا بالعديد من الجوانب التعليمية مع المجتمعات الإسلامية الأخرى، ومن ناحية أخرى فإن تعاطي الفاطميين مع السعي للمعرفة كان له خصائص مميزة كذلك، والتي نشأت من الظروف الاجتماعية-السياسية الخاصة في ذلك الوقت وكذلك من مرتبة الإمام في اللاهوت الشيعي كسلطة نهائية في التعليم الديني. تضمنت الخصائص المميزة للدعوة التركيز على الباطن والتأويل إضافة لجوانب عديدة أخرى²⁵.

تقدم الحياة الفكرية في زمن الفاطميين، إضافة لتقاليد مماثلة في فترات أخرى من التاريخ الإسلامي، شهادة واضحة أن الإسماعيلية تمثل منهجاً متوازناً ومتكاملاً بين العقل والإيمان. إن التنوع الواضح للمواضيع والأبحاث الثقافية والفكرية في العصر الفاطمي يمثل منارة للأمل وقوة في وقتٍ نحن فيه بأمس الحاجة، وربما أكثر من أي وقت آخر، لتقدير التنوع الفكري. كما يعرض الكتاب، انهماك المفكرين في العهد الفاطمي بالمواضيع الحديثة في عصرهم و استخدامهم صيغ التفكير الأكثر تقدماً والمتوفرة لهم في دراساتهم وأبحاثهم. مواجهة هذه المواضيع من قبل المجتمع الفاطمي بروح المغامرة تمثل كذلك شكلاً آخر للإلهام والذي يجعل من زمن الفاطميين مثابهاً لعصرنا الحالي.

شارمينا مواني
برنامج الدراسات العليا
معهد الدراسات الإسماعيلية

فريد بنجواني
معهد الدراسات الإسماعيلية- هيئة الطريقة والثقافة الدينية قسم الاتصالات وقسم التعليم
معهد الدراسات الإسماعيلية
التاريخ: 27.06.02

المراجع والملاحظات

1. م. كانراد، "الفاطيون" في الموسوعة الإسلامية (*The Encyclopaedia of Islam*)، إصدار جديد، مجلد 2، الصفحة 861. (يعتبر القرن الثامن عشر من أكثر الفترات إنتاجاً في مجال النشاط الفكري في أوروبا. ميز هذه الفترة ظهور الحركة التنويرية والتي ألهمت ثورة التطور الفلسفي والفني والسياسي).
2. ع. إسماعيل وع. نانجي، الإسماعيليون في التاريخ، في كتاب المساهمة الإسماعيلية في الإسلام. تحرير س. ح. نصر. طهران. 1977، الصفحات 227.
3. المصدر السابق، الصفحة 231.
4. كانراد، الصفحة 854.
5. هـ. هالم. الفاطميون وتقاليدهم في التعلم. لندن، الصفحات 12 و 13.
6. هـ. هالم. الإمبراطورية المهدية: ظهور الفاطميين. لايدن. 1996، صفحة 214.
7. المصدر السابق، الصفحة 215.
8. هالم، 1997، الصفحات 12 و 13.
9. ف. دفترى. الإسماعيليون: تاريخهم وعقائدهم. كامبردج، 1990. الصفحة 169.
10. هالم، 1996، الصفحة 414.
11. المصدر السابق، الصفحة 420.
12. إس. بوول. تاريخ مصر في العصور الوسطى. لندن، 1914، صفحة 99.
13. اسماعيل ونانجي، الصفحة 237.
14. هالم، 1997، الصفحة 41.
15. المصدر السابق، صفحة 45.
16. المصدر السابق، صفحة 46.
17. المصدر السابق، صفحة 73.
18. المصدر السابق، صفحة 17.
19. اسماعيل ونانجي، الصفحة 238.
20. هالم، 1997، صفحة 18.
21. تم ذكرها في هالم، 1997، صفحة 63.
22. المصدر السابق، صفحة 64.

23. جعفر منصور اليمن. كتاب العالم والغلام، تحقيق وترجمة (للإنجليزية) ج. مورس، العالم والغلام: حوار اسلامي مبكر، لندن، 2001.

24. هالم، 1997، صفحة 27.

25. رأى الإسماعيليون بالإضافة لمجموعات أخرى في الإسلام أن القرآن يحمل طبقات من المعاني. فقد آمنوا بأن كل آية من القرآن تحمل مستويات مختلفة من المعاني. يمكن معرفة هذه المعاني من خلال التأويل.